ظاهرة التخفيف في اللغة العربية

د.رمضان سعد مسعود محمد
كلية الآداب والتربية، صبراتة

ملخص البحث :-

الإنسان بطبيعته يميل إلى الخفّة وينفر من كل ثقيل, والتخفيف يوضح جانباً كبيراً من عبقرية اللغة في مراعاة الخفة في سلوكها دفعاً للثقل, وهو أقرب ما يكون من دراسة العلة النحوية؛ ولما للتخفيف من أثر بالغ في اللغة, فقد أولاه بعض النحاة أمثال سيبويه, وابن جنّي, اهتماماً خاصة, ونظراً لما لهذا الظاهرة من تأثير في مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية, باعتبارها وسيلة من وسائل تسهيل نطق اللغة بأقل جهد عضلي, قررت دراسة بعض جوانب هذه الظاهرة من خلال بحث وسمته بـ (**ظاهرة التخفيف في اللغة العربية**), حيث اقتضت طبيعة البحث أنْ يكون في تمهيد خمسة مباحث وخاتمة ضمنتها ما توصلت إليه من نتائج.

وقد كان المبحث الأوّل بعنوان :التخفيف لغة واصطلاحاً, والمبحث الثّاني بعنوان: بعض مظاهر الثقل في اللغة, والمبحث الثّالث تضمن, ظاهرة التخفيف عند العرب, والمبحث الرّابع درست فيه الخفة وأمن اللبس, أمَّا المبحث الخامس فقد درست فيه الخفة والثقل بين الفعل والاسم ونتائجهما, معتمداً في ذلك على المنهج الوصفي من خلال الرجوع إلى بعض المصادر نذكر منها(الكتاب لسيبويه, والخصائص لابن جني), وبنظرة عجلى إلى معنى التخفيف لغة واصطلاحاً نجد أنّهما يعودان إلى الميل إلى الخفة والهروب من الثقل, ويرى بعض النحاة أنّ الخفّة والثقل شيء نسبي حيث يرى سيبويه أنّ بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال عنده أثقل من الأسماء ومن مظاهر الثقل في اللغة: (انفراج المسافات بين الحروف والحركات عند النطق، ثقل الجملة وكثرة مكملاتها، التنافر من تجاور بعض الأصوات ذات البعد الشديد من الناحية النطقية) لقد عرف العرب ظاهرة التخفيف عند الضرورة أثناء استخدامهم للغة حيث يرى ابن جنّي أنّ بعض الكلمات الثنائية والأحادية قد فُتح أولها كثيرا وكُسر قليلاً، والمضموم الأقل لخفّة الفتحة وثقل الضمة، وظاهرة التخفيف ترتبط ارتباطا وثيقاً بقاعدة أساسيّة وهي:" أمن اللبس" فلا مبرر لأنْ

يلجأ ناطق إلى التخفيف من ثقل ما في الوقت الذي لا يُؤمن فيه اللبس، وهو ما يؤكد أنّ النظام اللغوي ليس قائماً على التناقض نطقاً وتقعيداً، ولكنّه متوازن مع الاستخدام والقاعدة بلا اشتباه حيث لا توجد ظاهرة على حساب ظاهرة أخرى وقد راعى الدارسون للغة دراسة التخفيف وضعا واستخداما وتقنيناً، حيث ذكر السيوطي قاعدة تُجسد ذلك مفادها: "اللبس محذور". وقد ذيلت البحث بخاتمة تضمّنت ما توصلت إليه من نتائج نذكر منها:

1- إنّ ظاهرة التخفيف قائمة على رفض الثقل النطقي لما له من تأثير في اللغة صوتاً وكلمة وتركيباً .

2- التخفيف نوع من الاختزال في اللفظ والاقتصاد في الجهد العضلي.

ABSTRACT

Man by nature tends to lightness and is alienated from everything heavy, and lightening illustrates a large part of the genius of the language in observing lightness in its behavior in order to avoid heaviness, which is the closest thing to studying the grammatical vowel; In order to mitigate its profound impact on the language, some grammarians, such as Sibawayh and Ibn Jinni, paid special attention to it, and due to the impact of this phenomenon on the phonetic, morphological and grammatical levels of the language, as a means of facilitating the pronunciation of the language with the least muscular effort, I decided to study some aspects of this The phenomenon through research and called it (the phenomenon of mitigation in the Arabic language), where the nature of the research necessitated that it be in the introduction of five topics and a conclusion included in the findings.

The first topic was entitled: linguistically and idiomatically, the second topic was entitled: Some manifestations of heaviness in the language, and the third topic included the phenomenon of mitigation among the Arabs, and the fourth topic I studied lightness and security of confusion, while the fifth topic I studied the lightness and weight between the verb and the noun and their results. Relying on the descriptive approach by referring to some sources, we mention them (Al-Kitab by Sibawayh, and Al-Khasa'is by Ibn Jinni), and with a hasty look at the meaning of mitigation linguistically and idiomatically, we find that they refer to the tendency to lightness and escaping from heaviness, and some grammarians believe that lightness and heaviness are relative. Sibawayh believes that some words are heavier than others, for verbs are heavier than nouns and the manifestations of heaviness in the language: (the gap between the spaces between the letters and the vowels when pronouncing, the heaviness of the sentence and the large number of its complements, the dissonance from the juxtaposition of some sounds that are very distant in terms of

pronunciation) the Arabs knew the phenomenon Reducing when necessary during their use of the language, as Ibn Jinni sees that some binary and monosyllabic words have been opened a lot and broken a little, and the least particle is due to the lightness of the opening and the weight of the clasp, and the phenomenon of mitigation is closely related to a basic rule, which is J: "Security of ambiguity." There is no justification for a speaker to resort to reducing the weight of something at a time when he does not secure ambiguity, which confirms that the linguistic system is not based on contradiction in speech and sitting, but it is balanced with use and the rule without suspicion, as there is no phenomenon at the expense of Another phenomenon, and scholars of the language have taken into account the study of mitigation, status, use, and rationing, as Al-Suyuti mentioned a rule that embodies this, stating: "Combination is forbidden." The research was appended with a conclusion that included the results it reached, including:

1- The phenomenon of mitigation is based on the rejection of articulatory weight because of its impact on the language, sound, word and structure

2-Reduction is a kind of abbreviation in speech and economy in muscular effort

تـمـهيد:

التخفيف ظاهرة من الظواهر اللغوية التي صاحبت اللغة العربية, ولها وجودها الفعلي نطقا وتقنينا, والذي يؤكد ذلك أنَّ التخفيف لم يكن في مذهب النحاة فقط, بل كان لدى كثير من القبائل, وشمل كثيرا من المناطق العربية, وقد تجسدت هذه الظاهرة في اللغة بكل مستوياتها: صوتاً وصرفاً ونحواً, من دون فصل بين هذه المستويات, حيث يوضح التخفيف جانباً كبيراً من عبقرية اللغة في مراعاة الخفة في سلوكها دفعا للثقل, وظاهرة التخفيف في النحو العربي أقرب ما تكون من دراسة العلِّة النحوية؛ لأنَّ ظاهرة التخفيف قائمة على رفض الثقل النطقي باعتباره علِّة أثرت في اللغة صوتاً وكلمة وتركيباً تأثيراً واضحاً؛ إذ كان الثقل سببا في اللجوء إلى النقيض وهو الخفة.

وقد كان للتخفيف أثر بالغ مما دعا بعض النحاة أمثال " سيبويه" "وابن جني "وابن يعيش ", "والسيوطي" إلى الالتفات إليه, ممَّا جعل تأثير هذه الظاهرة مستمراً في اللغة؛ لأنَّ اللغة مرتبطة بألسنة المتكلمين أولا, ثم بقوانين الوضعيين المقننين ثانيا.

ونظرا لما لهذا الموضوع من أهميه وتأثير في مستويات اللغة المختلفة ومن دون تعارض مع ما وضعه النحاة من قواعد رأيت أنْ أتناولَ بعض جوانب هذه الظاهرة باعتبارها وسيلة من وسائل تسهيل نطق اللغة بأقل جهد عضلي, وقد أخترت لهذا البحث من العناوين :(**ظاهرة التخفيف في اللغة العربية**) معتمدا في ذلك على المنهج الوصفي, وقد اقتضت طبيعة البحث أنْ يتضمن خمسة مباحث: **المبحث الأوَّل:** التخفيف لغة واصطلاحا, **المبحث الثَّاني:** مظاهر الثقل في اللغة, **المبحث الثَّالث:** ظاهرة التخفيف عند العرب, **المبحث الرَّابع:** الخفة وأمن اللبس, **المبحث الخامس:** الخفة والثقل بين الفعل والاسم ونتائجهما, وقد استعنت ببعض المراجع والمصادر نذكر منها: الكتاب لسيبويه, والخصائص لابن جني, والاقتراح للسيوطي, وشرح المفصل لابن يعيش, وقد ذيلت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج.

المبحث الأوَّل: التَّخفيف لغة واصطلاحا:

يميل اللسان العربي دائما نحو التيسير والسهولة في النطق, وخاصة كلما تحضَّر الناطقون به, والتخفيف إحدى الوسائل التي يلجأ إليها اللسان العربي عند هروبه من الثقل ومحاولته التيسير في النطق.

ذكر صاحب اللسان أنَّه لغة الخَفَّةُ والخِفَّةُ ضد الثقل والرجوح, والتخفيف ضد التثقيل.(1)

وقد عقد له سيبويه باباً بعنوان: (ما يسكِّن استخفافاً وهو في الأصل متحرك, ونسبه إلى قبيلة بكر بن وائل وأناس كثيرين من بني تميم) (2)

أمَّا اصطلاحا فهو يعني حذف الحركة, وهو نوع من الاختزال في اللفظ والاقتصاد في الجهد العضلي (3) ومن المناسب ذكره أنَّ ظاهرة التخفيف ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتوالي وتتابع الحركات وهو ما يستوضحه سيبويه بقوله: " إذا تتابعت الضمتان فإنَّ هؤلاء كرهوا ذلك كما يكرهون الواوين, وإنَّما الضمتان من الواوين فكما تُكره الواوان كذلك تكره الضمتان؛ لأنَّ الضمة من الواو. وذلك قولك الرُّسْل والطُّنبْ والعُنْقُ تريد (الرُّسُلُ, والطُّنُبُ, والعُنُقُ). وكذلك الكسرتان تكرهان عند هؤلاء كما تكره الياءان في مواضع, وإنَّما الكسرة من الياء فكرهوا الكسرتين كما تُكره الياءان وذلك في قولك إبْل: إبِل, وأما الفتحتان فإنهم لا يكرهون منه شيأً؛ لأنَّ الفتح أخف عليهم من الضم والكسر, كما أنَّ الألف أخف عليهم من الواو والياء"(4)

المبحث الثَّاني: مظاهر الثقل في اللغة:

يرى البعض أنَّ الخفة والثقل يرجعان إلى مجرد الانطباع, وبعضهم يرجعهما إلى احساس المتكلم, ولهذا يرى النحاة أنَّ الخفة والثقل شيء نسبي. وبعودة إلى تراثنا المجيد نجد سيبويه يقول في هذا الشأن:" واعلم أنَّ بعض الكلام أثقل من بعض, فالأفعال أثقل من الأسماء, لأنَّ الأسماء هي الأولى, وهي أشد تمكناً, فمن ثم لم يلحق الأفعال التنوين, ولحقها الجزم والسكون, وإنَّما هي من الأسماء ألا ترى أنَّ الفعل لابد له من الاسم, وإلا لم يكن كلاماً, والاسم قد يستغني عن الفعل, تقول: الله إلهنا, وعبدالله أخونا"(5)

والثقل لا يظهر إلا بموصفات تتجسد في الاستخراج اللغوي قننه النحاة القدماء في شكل قواعد ملموسة, ثم تلاهم المحدثون وذلك من خلال الفصحى باعتبارها نموذجاً للغة التي ترتضيها الطبقة المثقفة وتعتبرها مقياسا للصواب.(6) ومن مظاهر الثقل:

أولاً: القواعد العامة التي اتّفق عليها النحاة المقننون للغة والتي حكمت ظاهرة التخفيف, وهذه القواعد تجسدت من خلال ما يسمى النحو الفني, والنظر في طبيعة اللغة منها:

1- الاسم أخف من الفعل, والفعل أثقل من الاسم(7)
2- خفة الاسم وثقل الصفة(8)
3- المذكر أخف من المؤنث(9)
4- المهموس أخف من المجهور(10)
5- الإفراد أخف من التثنية والجمع, والتثنية أخف من الجمع(11)
6- التنوين علامة الخفة(12)

ثانيا: انفراج المسافات بين الحروف والحركات عند النطق؛ وذلك نحو المسافة المنفرجة بين الحرف والحركة, مثل "مَوْعِد" بكسر العين, "مَوْعَد" بفتح العين, فالأوّل أخف والثَّاني أثقل؛ لأنَّ المسافة بين الفتحة والواو منفرجة؛ ولهذا ثقلت الكلمة(13) وعليه كل ما ضاقت المسافة النطقية بين الحروف والحركات تمكّنت أعضاء النطق من الكلمة تماما فنتج عن ذلك خفة في نطق الكلمة.

ثالثاً: ثقل الجملة وكثرة مكملاتها, في نحو: جملة الصلة التي أجاز النحاة فيها حذف العائد للخفة نظرا لطولها, وكذلك الجملة التي يتعدّى فعلها إلى أكثر من مفعول, والجملة الشرطية, وجملة القسم حين يجتمع معها العطف(14)

رابعا: استخدام الأدوات في اللغة بدلا من أفعال حذفت, ونابت هذه الأدوات مكانها, نحو "يا" التي نابت مناب " أدعو وأنادي", "وهل" التي نابت مناب "استفهم", وكان من الواجب أن تؤَدَّى هذه المعاني وغيرها بالأفعال؛ لكثرة دورانها في الكلام حذفت الأفعال تخفيفا وحلت هذه الأدوات محلها

خامسا: ثقل التضعيف ذكر الرضي أنهم يستثقلون التضعيف غاية الاستثقال, إذ على اللسان كلفة شديدة في الرجوع إلى المخرج بعد انتقاله عنه, ولهذا الثقل لم يصوغوا من الاسماء والأفعال رباعيا أو خماسيا فيه حرفان أصليان متماثلان متصلان لثقل البناءين وثقل التقاء المثلين(15).

ولأجل عدم التقاء المتماثلين يستحسن العرب تركيب كلمات اللغة من حروف متباعدة, وفي ذلك يقول ابن جني: " إذا كان الصوت مع نقيضه أظهر منه مع قرينه ولصيقه, وكذلك كانت الكتابة بالسواد في السواد خفيفة وكذلك سائر الألوان"(16), ولقد أكد النحاة والصرفيون أن إدغام الحرف في الحرف أخف عليهم من إظهار الحرفين:" ألا ترى أن اللسان ينبو عنهما نبوة واحدة نحو: قولك شدَّ وقطَّع وسلَّم(17) ولهذا كان نبوّ لسان عنهما معا مرة واحدة سببا في الخفة

سادساً: تتابع نوع معين من المقاطع التي لها ثقلها في بناء الكلمات منها:

أ- المقاطع القصيرة:

ذكر" جان كانتينو"، " أن أهل اللهجات الشرقية يجتنبونا أنواعا معينة من تتابع المقاطع القصيرة"(18) وهو ما يقصده النحاة العرب من قولهم يثقل اجتماع أربعة متحركات فأكثر, مما يؤدي إلى تسكين أخر الفعل الماضي حينما تدخل عليه تاء الفاعل المتحركة مثل:" ضَرَبْتُ", لهذا تتلخص العربية في هذا التتابع بطرق معينة منها الإسكان والإدغام في كلمة واحدة أو كلمتين (19)

ب- المقاطع المغرقة في الطول:

من المقاطع التي تكرهها العربية لثقلها, المقاطع المغرقة في الطول ويتضح ذلك في الفعل المعتل الوسط في حالة الجزم(20),وفي مثل " لم يَقُلْ" التي أصلها لم يقول, حيث تسقط الواو لطول المقطع الذي أدى إلى استكراه آخر وهو التقاء ساكنين(21)

سابعاً: الثقل التنافر من تجاوز الأصوات ذات البعد الشديد من الناحية النطقية.

تستثقل العرب تجاور الأصوات البعيدة في مخارجها بعداً ملحوظا؛ لأنَّه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه, وكلاهما صعب على اللسان, واليسر في ذلك في الاعتدال(22) ولهذا يبين الدكتور تمام حسّان أنَّ الثقل في " مستشزرات": يعود إلى تكرار عدد من حروف الأسنان التي كانت سببا في استثقال مستشزرات, وتردد اللسان في النطق بين داخل الأسنان وأطرافها, الأمر الذي يستدعي انتباها خاصا من المتكلم إلى مخارج الحروف أثناء النطق (23)

ثامناً: ثقل بعض الحركات عن بعض.

فالضمة أثقل من الفتحة, وقد نقل السيوطي عن الخليل ثقل الضمة عن الفتحة قائلا:" أنت تتكلف في إخراج الضمة إلى تحريك الشفتين مع إخراج الصوت, وفي تحريك الفتحة إلى تحريك وسط الفم مع إخراج الصوت فما عمل فيه عضوان أثقل ممَّا عمل فيه عضو واحد"(24)

تاسعاً: ثقل بعض الحروف في طبيعتها وفي نطقها.

ومن أمثلة الحروف التي لها طبيعة خاصة في نطقها .

أ- حرف الهمزة وهو أوضح مثال على ثقل بعض الحروف, فالهمزة حرف شديد مستثقل يخرج من أقصى الحلق, ولذلك الاستثقال شاع فيه التخفيف لنوع من الاستحسان وتخفف الهمزة لكونها حرفا ثقيلا لها خشونة ونبوة جارية مجرى التهوع من أقصى الحلق(25)

ب- من بين الحروف ذات الطابع الخاص بقية حروف الحلق, بالإضافة إلى الهمزة تجد الألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء (26), وثقل هذه الحروف ناتج عن" عمق مخارج الأصوات هذا العمق الذي يؤدي إلى ثقل هذه الأصوات"(27) وقد نتج عن هذا الثقل:

1- قلة الكلمات التي تكون فيها اللامات والعينات من حروف الحلق

2- الألف والهمزة لم يجئ معهما مضاعف

3- المضاعف من العين قليل.

4- الغين لا تجيْءُ عينا ولاما معا إلا مع حاجز

5- لا تدغم الهاء في الغين(28)

المبحث الثَّالث ظاهرة التخفيف عند العرب:

لابد لكل لغة من مجموعة من القوانين تحكمها, واللغات لا تقضي مسيرتها الزمنية بطريق الاعتباط والمصادفة, وهذه القوانين تكاد ترقى إلى مكانة القوانين الطبيعية ثابتا وقوة, ولا يعني جهلها لهذه القوانين في بعض الأحيان أنَّها غير موجودة ومهمة العلم البحث على هذه القوانين يكتشفها ولا يخترعها, يميط اللثام عنها ولا يتحكم فيها(29) ومن هذه القوانين" الجنوح إلى المستخف, والعدول عن المستثقل وهو أصل الأصول في الحديث"(30)

لقد عرف العرب المحدثون ظاهرة التخفيف فرُوعيت عند الضرورة في أثناء استخدامهم للغة حيث تجد ابن جني يعرض رأيه في أنَّ الكلمات الثنائية والأُحادية قد فتح أولها كثيرا وكسر قليلا, ولم نجد المضموم إلا الأقل لخفة الفتحة وثقل الضمة(31) , وممَّا يؤكد أنَّ العرب راعت ظاهرة التخفيف وعنيت بأحوالها وتتبعها قول ابن جني:" هيهات, ما أبعدك عن تصور أحوالهم وبعد أغراضهم, ولطف أسرارهم, حتى كأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم وخففوا عن ألسنتهم بأنْ اختلسوا الحركات اختلاسا, وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة لم يشبعوها؛ ألا ترى إلى قراءة أبي عمر﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾(32) مختلسا لا محققا" (33), ومن الأدلة على أنّ العرب عرفوا ظاهرة التخفيف حقّ المعرفة تعليق ابن جني على جواز اسكانهم في " رُسُلْ" المضموم العين وكذلك المكسور دون المفتوح بقوله: " أن أدل دليل بفصلهم بين الفتحة وأختيها على ذوقهم الحركات, لاستثقالهم بعضها, واستخفافهم الآخر. فهل هذا ونحوه إلا إمعانهم النظر في هذا القدر اليسير المختصر من الأصوات؟ فكيف بما فوقه من الحروف التوام بل الكلمة من جملة الكلام؟"(34)

ومن القصص التي تؤكد احساس العرب بالخفة والثقل, وتذوقهم لكل منهما, هذا الذوق التي نتج عنه تجنبهم الثقيل وإيثارهم الخفيف, الأمر الذي أدّى إلى تجسّد تلك الظاهرة في لغة العرب, ما ورد على لسان ابن جني بقوله:" سألت غلاما من آل المهيّا فصيحا عن لفظة من كلام لا يحضرني الآن ذكرها فقلت أكذا أم كذا؟ فقال: بالنصب؛ لأنّه أخف فجنح إلى الخفة فعجبت من هذا مع ذكره النصب بهذا اللفظ" (35)

وفي ذلك دليل على معرفة العرب – حتى الصغار منهم – لهذه الظاهرة, ودليل على عدم اقتراض هذه الظاهرة من لغة أخرى تختلف في طبيعتها عن اللغة العربية؛ لأن "لها من أصولها وقواعدها ما يتيح لها أن تكون أداة التواصل بين الناس دون أن تفتقر إلى أصل أو قاعدة من لغة أخرى" (36)

والجدير بالذكر أنه ليس الناطقون من العرب هم فقط الذين تأثروا بالخفة والثقل بل إن الدارسين أنفسهم قد اهتموا بهذه الظاهرة أيما اهتمام, حيث كانوا يعرفون كثيرا من أسرار اللغة. وفي ذلك يقول محمد حماس عبداللطيف:" إنَّ تلمّس الصرفيين لأسباب التغير في هيأة الكلمة التي حدث فيه الإعلال والإبدال يكشف عن فهم فيه صواب كثير لخصائص الأصوات العربية والتشكيل المقطعي لكلماتها, والأسباب التي قدموها في هذا السبيل من حيث الخفة والاستثقال والتناسب الصوتي, وغير ذلك أسباب صحيحة في مجملها, برغم أنهم لم يكونوا يملكون إلا الملاحظة الذاتية"(37)

المبحث الرَّابع: الخفة وأمن اللبس:

ترتبط ظاهرة التخفيف بقاعدة أساسية, وهي " أمن اللبس" , ولا مبرر لأنْ يلجأ ناطق إلى التخفيف من ثقل ما في الوقت الذي لا يؤمن اللبس فيه, ولو حدث ذلك وكان التخفيف سببا في إيجاد اللبس في بناء المفردات أو الجمل لكان التخفيف اعتباطا لا جدوى منه ولا تحكمه قاعدة, وأدى إلى التناقض, وكان البحث فيه لا طائل من ورائه, والتخفيف ليس كذلك؛ لأنَّه يقوم على أُسس ثابتة وقواعد راسخة منها: عدم تعارضه مع فكرة أمن اللبس فظاهرة التخفيف لا تتداخل مع باقي الظواهر ولا تتعارض معها.

وهذا يؤكد أنَّ النظام اللغوي ليس قائماً على التناقض نطقاً وتقعيداً, ولكنه متوازن مع الاستخدام والقاعدة بلا اشتباه حيث لا توجد ظاهرة على حسب ظاهرة أخرى, وإنَّما تتكاتف الظواهر وتتعانق في إيجاد لغة لها قوانينها المحكمه لبنائها صوتاً وصرفاً وتركيباً. فالناطق لديه الحاسة والذوق اللذان يحكمان بناء لغته

والنحاة الدارسون للغة يراعون مصادرها دراسة التخفيف وضعاً واستخداماً وتقنيناً, حيث ذكر السيوطي قاعدة تجسد ذلك مفادها" اللبس محذور, ومن ثم وضع له ما يزيله إذا خيف لحاق نحوه إذا أمن"(38)

وقد وضعت حدودا من شأنها أنْ تمنع اللبس نحو: استخدام علامات الإعراب التي تفرق بين وظيفة كل كلمة داخل الجملة؛ لئلا يثقل على الإنسان معنويا معرفة كون الوظيفة الإعرابية للكلمة فاعلا أو مفعولا, فيخلط بينهما ويقع اللبس.

فعند أمن اللبس نجد اللغة حريصة على عدم إلحاق التاء في الصفات الخاصة بالإناث مثل: حائض وطالق ومرضع وكاعب وناهد(39)؛ لأنَّ اختصاص هذه الصفات بالمؤنث جعل اللبس مأمونا لذلك لم يكون هناك حاجة إلى فارق بين المذكر والمؤنث, حين خفت اللغة من هذه التاء التي تثقل الكلمة لفظياً لعدم الاشتباه في كون الصفة لمذكر حين أصبح الوصف هنا بدون علامة مثل مذكر, ولكن يستطيع الإنسان أنْ يميّز بين كل منهما بدون تاء(40).

فاللغة كل ما وجدت فرصة لتخفيف تحذف هذه العلامة التي تؤدي إلى ثقل لفظي مع أمن اللبس لم تتردد قواعدها في ذلك, وكان أمن اللبس عاملا مساعدا في ذلك(41).

فالمبرد حين أراد أنْ يعالج باب الحذف قال:" هذا باب ما يحذف استخفافا؛ لأنَّ اللبس فيه مأمون"(42) لذا يعد أمن اللبس من شروط الحذف للاستخفاف, لئلا يختلط بناء ببناء ومعنى بمعنى, حيث اشترط بعض النحاة أن يكون الدليل على المحذوف قائما وموجودا داخل السياق (43) ومن ذلك ما ذكره ابن جني في جواز حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه بقوله:" إنَّ الصفة في الكلام على ضربين, إما للتخليص والتخصيص وإما للمدح والثناء وكليهما من الإسهاب والإطناب لا من مظان الإيجاز والاختصار. وإن كان ذلك كذلك لم يلقْ الحذف به, ولا تخفيف لفظ منه مع ما ينضاف إلى ذلك من الالتباس وضد البيان ألا ترى أنك إذا قلت: مررت

بطويل لم يستبن من ظاهر اللفظ المجرور به إنسان دون رمح أو ثوب أو نحو ذلك(44) , ولهذا يقرّ ابن جني بجواز حذف الموصوف متى قام الدليل عليه, أو شهدت الحال به, ويجب ذكره إذا استبهم الموصوف(45)

– المبحث الخامس: الخفة والثقل بين الفعل والاسم ونتائجهما:

يؤكّد النحاة والصرفيون أصالة الفعل في باب الإعلال وتبعية المصدر له, وذلك لثقل الفعل و فرعيته, فإذا أُعلَّ الفعل أعلَّ مصدره(46), نحو " قام قيام", وإذا سلم الفعل سلم مصدره " قاوم قواما" وينتج عن ذلك سقوط التنوين من الفعل لثقله, وبقاؤه مع الاسم لخفته(47)

والاسم لخفته كان " أحمل للزيادة في آخره من الفعل, وذلك لقوة الاسم وخفته, فاحتمل سحب الزيادة في آخره والفعل لضعفه وثقله لا يتحامل بما يتحامل به الاسم لقوته. ويدل على ثقل الزيادة في أخر الكلمة أنك لا تجد في ذوات الخمسة ما زيد فيه من آخره إلا الألف لخفتها وذلك مثل (قَبَعْثَرَى)" (48) ومن النتائج أيضا أن الأفعال لثقلها لحقها الجزم والسكون, والجزم حذف حركة أو حرف, فهو تخفيف, وإذا كانت الاسماء أحمل للخفض لخفتها فالأفعال أحمل للجزم لثقلها فيعتدل الكلام في تخفيف الثقيل(49)

ويلحق بنتائج خفة الاسم وثقل الفعل, أنَّ الفعل لثقله الدلالي ليس له أبنية خماسية, أما الاسم لخفته فله من الأبنية الثلاثي والرباعي والخماسي(50)

– خفة الاسم وثقل الصفة:

لقد ارتبطت الصفة بالفعل في الدلالة والعمل, وذكر ذلك سيبويه بقوله:" أنك ترى الصفة تجري في معنى (يَفْعَلُ), يعنى هذا ضاربٌ زيداً, وتنصب كما ينصب الفعل فإن كان اسما كان أخف عليهم"(51) ويتضح من كلام سيبويه أن الصفة تجري مجرى(يَفْعَلُ) في المعنى والعمل, ويرى السيوطي أن ثقل الصفة يتمثل في عدة أوجه منها:

الوجه الأوَّل: أنَّها تناسب الفعل في الاشتقاق

الوجه الثَّاني: أنَّها تناسبه في تحمّل الضمير

الوجه الثَّالث: أنّها تناسبه في العمل

الوجه الرّابع: أنّها تفتقر إلى موصوف تتبعه

فلمّا ثقلت من هذه الجهات أشبهت ثقل المركَّب فكانت زيادة الحركة للفرق على الخفيف أولى من زيادتها على الثقيل. (52)

لقد ترتب على ثقل الصفة عدة نتائج نذكر منها:

1- زيادة الحركة في الاسم المجموع بالألف والتاء على العين, وحذفها من الصفة وقد ذكر ذلك ابن يعيش في قوله: عن جمع تمرة: تمرات بفتح العين وجارية خدلة خدلات بتسكين العين لخفة الاسم وثقل الصفة؛ لأن الصفة جارية مجرى الفعل والفعل أثقل من الاسم(53)

2- يجب في الوصف الذي ألفهُ مقصورة قلب الياء في الجمع ألفاً دون الاسم, لأنَّ الوصف أثقل من الاسم من حيث المعنى فالتخفيف به أنسب من ذلك "حَبَالى" و " حَنَاثى", فالألف في فَعَالى مبدلة من الياء(54)

3- بقاء الياء كما هي دون قلب في " حيكى و ضيزى" وقلبها في " الكوسى والطوبى" حيث خص الاسم بالقلب للفرق؛ لأنَّ الاسم أخف من الصفة, والصفة أثقل؛ لأنَّها في معنى الفعل, والأفعال أثقل من الاسماء والواو أثقل من الياء فجعلوها في الاسم الذي هو خفيف, ولم تجعل في الصفة لئلا تزداد ثقلا(55)

- ثقل المعرفة:

النكرات من الأسماء أخف من المعارف؛ لأنَّه إذا ذكر الواحد منها دلّ على مسمّى تحته بغير فكر لتحصيله دون سائر من يشركه فيه بعينه, وإذا ذكر الاسم المعروف فلابد من الفكر في تحصيله دون سائر من يشركه فيه, فإذا قيل جاءني رجلٌ فليس لسامع فكر في تحصيله, لأنَّه واحد من جنس وإذا قيل جاءني محمد, ذُكر واحد معروف, فالسبيل تحصيله بعينه من سائر من يشركه في التسمية وإلا فلا معنى(56) وقد ذكر ذلك سيبويه قائلا:" اعلم أنَّ النكرة أخف عليهم من المعرفة, وهي أشد تمكناً؛ لأنَّ النكرة أولى ثم يدخل عليها ما تعرف به ومن ثم أكثر الكلام ينصرف للنكرة"(57)

كما يرى ابن يعيش أيضا أنَّ النكرة الأصل والأخف عليهم والأمكن عندهم والمعرفة فرع (58)

ولثقل المعرفة وخفة النكرة نتائج نذكر منها:

1- إلحاق التنوين بالنكرة دليل على خفتها لذلك لم يلحق الأفعال لثقلها(59)

2- منع الصرف للكلمات التي تحتوي على فرعين في المعنى, أحدهما العلمية, وهي نوع من أنواع التعريف

3- عدم تعريف المعرفة, فالمعرف لا تدخل عليه(أل)؛ لأنَّ المُعرَّف فيه ثقل بطبيعته قياسا إلى النكرة لذلك لا تدخل(أل) على المنادى؛ لأنَّ نداء الاسم يفيد التعريف و(أل) هي الأخرى للتعريف, ولا تجمع اللغة بين معرفين على معرف واحد في وقت واحد.(60)

- المذكر أخف عليه من مؤنث:

يرى سيبويه أنَّ المذكر أخف عليهم من المؤنث لأنَّ المذكر أول, وهو أشد تمكناً حيث يخرج التأنيث من التذكير(61) وهذا يرتبط بفكرة الأصل والفرع, حيث أثَّر ذلك في طبيعة اللغة ممَّا ترتب عليه عدة نتائج منها:

1- يعمل التأنيث وهو فرع في منع الكلمة من الصرف, إشعاراً بفرعيته؛ لذلك كان له إعراب مخالف لبقية الكلمات وفي ذلك يقول ابن جني:" ألا ترى لو نزعت عن الاسم تأنيثه لصرفته"(62) ثقل الكلمة من أسباب المنع من الصرف فإذا اجتمع سببان منعت الكلمة من الصرف تخفيفا, وإذا اجتمع ثلاثة أسباب أو أكثر فقد أكد ابن جنّي أنَّ ذلك يمنع الكلمة من الإعراب أصلا ويحولها إلى المبنيات, نحو: حذامِ وقطامِ فهما معدولتان عن حاذمة وقاطمة. (63)

1- وجود معنى التأنيث: لوجود معنى التأنيث تأثير على حذف بعض الحروف من الكلمة فالنسبة إلى حنيفة: حَنَفَي وشنوءة شَنَئِي(64)

2- التغليب: ويراد به تغليب المذكر على المؤنث فمثلما للتأنيث تأثير في تغير بعض الكلمات, له تأثير في بناء الجمل فإذا اجتمعت أسماء مذكرة مع أخرى مؤنث فالحكم للأسماء المذكرة؛ لأنَّها أصول والأصل أخفُّ من الفرع فله الحكم.(65)

نـتـائـج الـبـحـث:-

1- ظاهرة التخفيف قائمة على رفض الثقل النطقي, لما له من تأثير في اللغة صوتاً وكلمةً وتركيباً.

2- التخفيف نوع من الاختزال في اللفظ, والاقتصاد في الجهد العضلي.

3- للثقل مواصفات تتجسد في الاستخراج اللغوي الذي قنّنه النحاة في شكل قواعد ملموسة.

4- قد تحلُّ بعض الأدوات محل أفعال تحذف كحذف الفعل أدعو وإحلال الياء محله في أسلوب النداء وذلك لأجل التخفيف.

5- تراعي العربُ ظاهرة التخفيف عند الضرورة في أثناء استخدامهم للغة.

6- ليس الناطقون هم من تأثروا بالخفة والثقل, بل الدارسون أيضا اهتموا بهذه الظاهرة.

7- لا تجوّز اللغة العربية التخفيف مع عدم وجود أمن اللبس.

8- من نتائج ثقل المعرفة وخفة النكرة عدم دخول مُعرِّفين على معرّف واحد في وقت واحد.

9-

- هـــوامـــش الـبـحـــث:-

1- ينظر لسان العرب, لابن منظور, تح عبدالله علي الكبير, محمد أحمد حسب الله, هاشم محمد الشاذلي, ط بلا, دار المعارف مادة (خفف) 1212/2 .

2- ينظر الكتاب, لسيبويه, تح عبدالسلام هارون, ط1, دار الجيل بيروت 113/4.

3- الجواز النحوي ودلالة الإعراب على المعنى, مراجع عبدالقادر الطلحي, جامعة قاريونس بنغازي,ص385.

4- الكتاب لسيبويه 113/4.

5- الكتاب, 1/20-21.

6- ينظر التطور اللغوي, عبدالرحمن أيوب, دار الطباعة القومية مصر, 1964, ص58.

7- ينظر الخصائص, لابن جني, تح محمد علي النجار, الهيئة المصرية للكتاب, ط4, 237/1.

8- ينظر شرح المفصل, لابن يعيش, عالم الكتب بيروت, 28/5.

9- ينظر الكتاب, 22/1.

10- ينظر المصدر السابق 44/4

11- ينظر شرح المفصل, 63/1.

12- الكتاب, 22/1, شرح المفصل, 58/1.

13- شرح الشافية, للجاربردي, مطبعة العامرية ص72.

14- ينظر ظاهرة التخفيف في الدرس اللغوي, طاهر سليمان, دار الجامعية للطباعة,1982, ص90.

15- ينظر شرح الشافية, للرضي الإستراباذي, تح محمد نور الحسن وأخرين, مطبعة حجازي القاهرة ,238/3-239.

16- الخصائص لابن جني, 227/2.

17- المصدر السابق 228/2.

18- دروس في علم الاصوات العربية, جان كانتينو, الجامعة التونسية, منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية 1966, ص196.

19- ينظر القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث, عبدالصبور شاهين, دار القلم 1966, ص78-79.

20- ينظر التصريف العربي, الطيب البكوش تونس, 1973, ص186.

21- ظاهرة الحذف في النحو العربي, طاهر سليمان, الدار الجامعية للطباعة والنشر الإسكندرية 1968, ص89.

22- ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي, عبدالقادر حسين, دار نهضة مصر الفجالة 1975, ص259.

23- ينظر الأصول, تمام حسان, دار الثقافة بالمغرب, ط1, 1981, ص356.

24- الأشباه والنظائر, للسيوطي, منشورات محمد علي بيوض, دار الكتب العلمية بيروت- لبنان, ط1 2001, 170/1.

25- ينظر شرح الشافية, للفاضل العصام, مطبعة عيسى الحلبي, ص150.

26- ينظر مفتاح العلوم للسكاكي, ط1, مطبعة الحلبي 1937ص5.

27- أبوعلي والدراسات الصوتية, علي جابر المنصور, مجلة المورد, المجلد14, ص88.

28- ينظر شرح الشافية للرضي, 275/3.

29- ينظر التطور اللغوي, مظاهره وعلله, رمضان عبدالتواب, مكتبة الخانجي القاهرة, ط3 1997, ص7

30- الخصائص, 162/1-163.

31- ينظر المصدر السابق, 70/1.

32- سورة يوسف من الآية:11.

33- الخصائص, 73/1.

34- المصدر السابق, 76/1.

35- المصدر نفسه, 79/1.

36- من خصائص العربية, تمام حسان, مجلة مجمع اللغة العربية, العدد47 1981, ص75.

37- الإعلال والإبدال بين القدماء والمحدثين, مجلة مجمع اللغة العربية, الجزء48, ص166.

38- ينظر ظاهرة التخفيف في النحو العربي, أحمد عفيفي, الدار المصرية اللبنانية, ط1 1969,ص92.

39- الأشباه والنظائر 277/1

40- المصدر السابق, 281/1.

41- ينظر ظاهرة التخفيف في النحو العربي, ص93.

42- المقتضب للمبرد, تح: محمد عبدالخالق عضيمة, عالم الكتب بيروت, 248/1.

43- المصدر السابق, 251/1, والخصائص 362/2.

44- الخصائص 366/2.

45- ينظر ظاهرة التخفيف في النحو العربي,ص94.

46- ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف, للأنباري, ط1, مطبعة الاستقامة 1945, 144/1.

47- ينظر الرّد على النحاة, لابن مضاء القرطبي, محمد إبراهيم البنا, دار الاعتصام, ط1 1979, ص132.

48- الخصائص, 237/1.

49- ينظر الايضاح في علل النحو, للزجاجي, تح مازن مبارك, دار النفائس, ط2 1973, ص106.

50- ينظر شرح الشافية, لنقرة كار, مطبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي, ص5.

51- الكتاب لسيبويه, 21/1.

52- ينظر الاشباه والنظائر,64/1.

53- ينظر شرح المفصل, 28/5.

54- ينظر شرح الشافية للرضي, 160/2.

55- ينظر شرح المفصل لابن يعيش, 97/10-98.

56- ينظر الايضاح للزجاجي, ص100.

57- الكتاب, 22/1.

58- ينظر شرح المفصل, لابن يعيش, 57/1.

59- ينظر ظاهرة التخفيف, ص58-59.

60- ينظر همع الهوامع في شرح جمع الجوامع, للسيوطي, تح: عبدالحميد الهنداوي, المكتبة التوفيقية 174/1

61- ينظر الكتاب لسيبوية, 22/1.

62- الخصائص, 80/1.

63- المصدر السابق الصفحة نفسها.

64- ينظر شرح الشافية, ص104.

65- ينظر علم اللغة التقابلي, أحمد سليمان, دار المعرفة الجامعية, الإسكندرية, 1985, ص101.